٦ - المؤرخون الهواة
ودورهم في كتابة تاريخ مصر الحديث والمعاصر (١)

يحلو للكثيرين من غير المؤرخين الكتابة فى التاريخ ، والغوص فى أعماقه ولكن ذلك لا يعنى أن كل من يحاول الكتابة فى التاريخ يعد مؤرخا ، بل لابد أن تتوافر فيمن يكتب التاريخ من الصفات والاستعدادات والظروف التى تؤهله للقيام بهذا العمل ، خاصة وأن الدراسات التاريخية الحقة ليس من السهل كتابتها ، وقد كان « تولستوى » على حق حين ذكر رائعته الحرب والسلام « أن التاريخ هو دراسة حياة الشعوب والبشر ، وأن الإمساك بهذه الحياة ووضعها فى كلمات أمر صعب ، بل قد يكون مستحيلا » .

ومع ذلك فهناك من المؤرخين الهواة من فاق بقدراته وملكاته ، ومعايشته للحدث بعض المؤرخين الأكاديميين ، ويشهد على ذلك ما كتبوه وأصبح بصمة واضحة فى جبين التاريخ المصرى يصعب الاستغناء عنه أو مجرد تجاهله ، ومنهم من تجاهل منهج البحث التاريخى ، وساير إتجاهه الفكرى وانتقى من الأحداث ما يوائم تصوره ، ومنهم أيضا من يغلب اسلوب حرفته على كتابته خاصة إذا كان صحفيا أو أدبيا .

ونظرا لأن موضوع الندوة يقتصر على الربع الأخير من هذا القرن ، فإننا سنكتفى بأن نعرض لكتابات المستشار طارق البشرى ، كنموذج لمؤلفات كاتب ، يتميز بالنظرة الشاملة ، ويمثل الاتجاه الاسلامى فى كتابة التاريخ معظم مؤلفاته ، ونعرض لكتابات الدكتور رفعت السعيد كنموذج لمنهج أحد اليساريين المصريين فى الدراسات

---

(١) قدمت هذه الدراسة فى ندوة حصاد المدرسة التاريخية المصرية لتاريخ مصر الحديث والمعاصر فى الخمس وعشرين سنة الأخيرة والتى أقامها مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية CEDEJ فى الرابع والخامس من نوفمبر ١٩٩٥ .

التاريخية ، ولكتابات محسن محمد ، كأحد الصحفيين العاشقين لوثائق تاريخ مصر الحديث ، ولكتابات نجيب محفوظ ، كأحد الأدباء الذين تركوا بصماتهم على التاريخ المصرى الحديث وفيما يلى نعرض لدور هؤلاء :

١ - المستشار طارق البشري : (١)

مع أن ثقافته ثقافة قانونية ، والقانونيون غالبا ما ينصب اهتمامهم على معالجة التاريخ من هذه الزواية ، وعلى الرغم من أنه يكتب التاريخ من منطلق الهواية لا الحرفة ، فإن كتاباته تتميز بالنظرة الشاملة ، وبالبحث الدقيق الذى لا يقدر عليه إلا قلة نادرة من المتخصصين فى تاريخ مصر .

لقد ألزم طارق البشرى نفسه أن يحطم الحواجز القائمة بين الهواة من المؤرخين ، والأكاديميين منهم ، واستطاع بأفاقه المفتوحة ، أن يكتب فى تاريخ مصر المعاصر مؤلفات تتميز بالمعرفة الكاملة للأمور ، لدرجة أن ما كتبه يعد إضافة لتاريخ مصر المعاصر .

لقد توزعت حياة طارق البشرى بين القانون والتاريخ ، وكأنه امتطى حصانين ، فامتلك زمامهما معا ، وأصبح كاتبا له مذاقه الخاص المتميز . تفيض كتاباته بثقافة عميقة متعددة الروافد ، برز أثرها الفعال فى تكوين منهجه الفكرى .

---

(١) ولد بالقاهرة فى أول نوفمبر ١٩٣٢ فى أسرة تحيطها هالة دينية واضحة فجده الشيخ سليم البشرى كان عالما من علماء الأزهر المرموقين ، ووالده كان رئيسا لمحكمة الاستئناف .

وبعد أن حصل طارق البشرى على ليسانس الحقوق من جامعة القاهرة فى عام ١٩٥٣ عمل بمجلس الدولة منذ عام ١٩٥٤ ، كما عمل نائبا لمجلس الدولة فى عام ١٩٨٥ . وتولى إدارات الفتوى بالعديد من الوزارات ، وعمل مستشارا قانونيا لعدد من الوزارات والإدارات .

ضمن لقاء مع المستشار طارق البشرى بسمنار كلية البنات جامعة عين شمس فى الثلاثاء ١٩٩٣/١/٥ . ويشغل الأستاذ طارق البشري حاليا منصب النائب الأول لرئيس مجلس الدولة لشئون الفتوي والتشريع .

ولعل أبرز مؤلف تاريخى ظهر فى أوائل السبعينات من هذا القرن ، كان كتابه « الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢ » [١] الذى تعرض فيه لدراسة الحركات السياسية والشعبية خلال هذه الفترة ، بما فيها من قصور وايجابيات ، تابع أوضاع المجتمع المصرى من خلالها بطريقة تتميز بالاعتدال فى الرأى ، والبعد عن الهوى والعصبية ، كما قام باستقصاء الحوادث بدقة وموضوعية ، تدل على إلمامه بأصول البحث التاريخى ومناهجه ، فقدم لنا رؤية عميقة وجذابة لشتى الدراسات السياسية الموجودة فى مصر فى ذلك الوقت ، وتطرق إلى الظروف التى دفعت بالضباط الأحرار الى التعجيل بالتحرك ، وتقديم ساعة البدء إلى ليلة الثالث والعشرين من يوليو ، بدلا من الخامس من أغسطس ١٩٥٢ .

حقيقة إن من يتحمص هذه الدراسة ، يجد فى ثناياها إعجاب طارق البشرى بالفكر اليسارى ، وعدم تحمسه للاخوان المسلمين ،، ولكنه قد راجع رأيه فى الطبعة الثانية من هذا الكتاب ، التى صدرت فى عام ١٩٨١ فكتب مقدمة تقترب من السبعين صفحة أشار فيها إلى الأسباب التى دفعته صراحة إلى مراجعة رأيه واعترافه بالحركة الاسلامية كعنصر أساسى وجوهرى فى إدارة دفة السياسة المصرية .

يضاف إلى ذلك أن كتابه « المسلمون والأقباط فى اطار الجماعة الوطنية » الذى صدر فى عام ١٩٨٠ كشف عن انتقاله التدريجى لصالح الحركة الاسلامية .

وعلى أية حال يمكننا أن نرجع الأسباب التى جعلت طارق البشرى يعدل عن رأيه تجاه الفكر اليسارى إلى أصوله الاجتماعية ، خاصة وأن جده الشيخ سليم البشرى كان من كبار علماء الأزهر المرموقين ، هذا

---

(١) نشرت الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الأولى منه فى عام ١٩٧٢ .

بالاضافة إلى أن المناخ العام الذى كانت تعيشه مصر فى بداية الثمانينات ، ربما كان السبب فى ذلك أيضا .

وللمستشار طارق البشرى دراسة هامة بعنوان : « الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو » شملت الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٧٠ وهذه الدراسة كما يذكر صاحبها من الموضوعات الساخنة التى تدور حولها المعارك السياسية ، وقد عالجها بطريقة تبلور الدروس المستفادة ، خاصة وأن آثارها لا تزال ممتدة وأوضاعها ما زالت متداخلة فى غالب شئوننا السياسية والاقتصادية [١] وتعد هذه الدراسة تكملة تاريخية لكتابة الحركة السياسية فى مصر من ١٩٤٥ - ١٩٥٢ .

لقد كتب طارق البشرى دراسته التاريخية إشباعا لرغبة لا التزاما بمهنة ، ونظر إلى التاريخ كوسيلة فعالة لتثقيف العقول وتوجيه المواطنين إلى المثل العليا فى حياتهم القومية ، وتعليمهم تاريخ بلادهم بطريقة صحيحة خاصة كما يذكر أن تجارب التاريخ ودروس الواقع لن يبقيها المدح ولن يقضى عليها الذم ، لأن كلا من المدح والذم من شأنه أن يذهب بريحها ، ولأنهما يستويان فى جعل أى مرحلة تاريخاً ماضياً .. ولن يبقى أى تاريخ حاضراً وحيا إلا الوعى بآثاره سلبا وايجابا على سواء [٢] .

وفى النهاية يمكن القول أن ما كتبه طارق البشرى فى تاريخ مصر يختلف عما كتبه عبد الرحمن الرافعى وغيره من القانونيين فالرافعى كتب تاريخ مصر من وجهة نظر الحزب الوطنى ، فكل ما فعله الحزب الوطنى من وجهة نظر الرافعى صحيح ، كما أنه تتبع تاريخ مصر زمنيا واقتصر فى معالجته التاريخية على الجانب السياسى بهدف ابراز دور مصطفى كامل ومحمد فريد ، يضاف إلى ذلك أنه كان يستبعد حياد

---

(١) انظر المقدمة ص ٥ ، ٦ .
(٢) انظر مقدمته لكتابه الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو ، ص ١٦ .

المؤرخ لأن ذلك على حسب قوله يشبه أن نقول للشاعر لا تكن عاطفيا أو نقول للرسام لا تكن حساسا أو نقول للمطرب لا تهتز أثناء الغناء ، بينما كتب طارق البشرى تاريخ مصر من زاوية معايشته لتجربة تاريخية وخبرة مجتمعية ، وبطريقة تتسم بالتحليل ، ومع أنها لا تخلو من وجهة نظر ، فإنها حيادية إلى حد كبير وتتسم بالوعى النقدى اليقظ والتمكن من أصول فن التاريخ ، والحاسة الأدبية والفنية الواضحة ، والصدق والانصاف فى تدوينها وشرحها وتفسيرها . وهنا الفرق كل الفرق بين من يكتب ويبحث لأجل الحقيقة ، وبين من يكتب ويجادل ارضاء لعواطفه الخاصة . وفى النهاية يمكن القول أن ما كتبه طارق البشرى فى تاريخ مصر يعد بحوثا علمية من الطراز الأول تشرف وبحق علماء مصر ومؤرخيها .

٢ - الدكتور رفعت السعيد :

يملك الدكتور رفعت السعيد ـ منذ أن عرفته أخبار اليوم صحفيا ـ حاسة اجتماعية ثورية فتحت للفكر الاجتماعى فى مصر طريقا يستحق التقدير والمتابعة .

ومؤلفات رفعت السعيد عديدة يوجد بين دفتيها بيانات ومعلومات لا غنى للمثقف عنها . وقد مثلت معظم مؤلفاته التيار الماركسى فى منهج الدراسات التاريخية ، فتناولت التجمعات الطبقية ، وجوانب الصراع الطبقى وتطورها فى فترات تاريخية متلاحقة ، كما تناولت القوى الاجتماعية فى مصر ، والنضال النقابى والسياسى للطبقة العاملة وتطور أساليبه . والارتباط الوثيق بين قضية الاستقلال الوطنى ومطالب الجماهير ، والمنابع الفكرية للعمل الاشتراكى ، وموقف الحركة الشيوعية من القضية الفلسطينية .

ومن هذه المؤلفات نذكر : « تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ١٩٠٠ – ١٩٢٥ » ، « اليسار المصرى ١٩٢٥ ـ ١٩٤٠ » ، « تاريخ

المنظمات اليسارية المصرية ١٩٤٠ - ١٩٥٠ » ، « الصحافة اليسارية فى مصر ١٩٢٥ ـ ١٩٤٨ » ، « اليسار المصرى والقضية الفلسطينية » ، و « القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية » .

بالاضافة إلى هذه المؤلفات ، كتب رفعت السعيد سلسلة من المقالات التاريخية فى مجلة الطليعة وعددا من المقالات التاريخية وغير التاريخية فى الصحف اليومية ، خاصة « الأهالى » صحيفة حزب التجمع .

وفى هذه المؤلفات والمقالات برزت إنتماءات رفعت السعيد وميوله فصور الحركة الشيوعية بأعظم الصور الايجابية ، وهذا من حقه كمفكر أن يستخرج من تراث البشرية ما يتفق مع أفكاره ويلائم هواه ، أما وصفه مؤرخاً فنعتقد أن ذلك لا يتفق مع منهج البحث التاريخى الذى يناقش الحدث بما له وما عليه .

لقد انتقى الدكتور رفعت السعيد من الأحداث ما يوائم تصوره ، وتأثره فى كتاباته بالمؤثرات الحزبية والسياسية ، وبما يعتنق من نظريات وقيم مما جعله يدير ظهره فى بعض الأحيان لمنهج البحث التاريخى .

وإلى جانب ذلك فقد نصب نفسه فى بعض كتاباته قاضياً يوزع أحكام الاستحسان والاستهجان ، علما بأن العدالة فى الأحكام التاريخية لا تتحقق بسهولة .

ومع كل ذلك فلا ينكر أحد أن الدكتور رفعت السعيد أوتى من العلم والثقافة حظا كبيرا مكنه من الغوص فى أعماق الماضى واستخراج ما يتناسب مع أفكاره وتصوراته ، لذلك فنحن نفضل أن نضع بجانب اسم رفعت السعيد مفكرا ، وليس مؤرخا ، فثقافته غنية ومتعددة الروافد ، وأفكاره المتقدمة والمتنوعة توظف التاريخ لخدمة أهداف سياسية .

٣ - الأستاذ محسن محمد :

تكمن أهمية كتابات محسن محمد فى أنه استقى معظم مادتها التاريخية من الوثائق الأصلية خاصة البريطانية والأمريكية ففى كتابه « تاريخ للبيع » [١] قدم العديد من الأسرار الهامة التى أحاطت بمصر خلال الحرب العالمية الثانية منها : موقف القصر والحكومة من الألمان ، والقصة الكاملة لحادث ٤ فبراير ١٩٤٢ من خلال الوثائق البريطانية خاصة وثائق وزارة الخارجية فى لندن ، والتقارير التى كتبهاالسفير البريطانى فى مصر إلى حكومته .

وقد تعرض محسن محمد لتاريخ مصر من خلال الأحداث التى أثارت الرأى العام المصرى لفترة طويلة بعد أن أصدر الشيخ على عبد الرازق كتابه « الإسلام وأصول الحكم » فى ابريل ١٩٢٥ والأحداث المتتابعة التى أعقبت ذلك من خلال الوثائق البريطانية المحفوظة فى دار الوثائق العامة فى لندن ، والوثائق الأمريكية المحفوظة فى الأرشيف الوطنى بواشنجطن .

وفى كتابه « الشيطان ـ تاريخ مصر بالوثائق السرية والأمريكية » [٢] تعرض محسن محمد للمندوب السامى البريطانى « لويد » بالدراسة فأوضح أنه خلال خمسة وأربعين شهرا حكم فيها مصر حاول إتباع سياسة الحزم والقهر مع المصريين ، وأن يجعل من نفسه الحاكم الحقيقى لمصر ، والا يكون للحكومة المصرية سوى سلطة إسمية فقط ، كما حاول تحقيق مصالح الإمبراطورية البريطانية فى مصر أولا وقبل أى شىء أخر .

وفى كتابه « سعد زغلول مولد ثورة ـ شرارات ثورة ١٩١٩ بالوثائق الأمريكية والانجليزية » [٣] تعرض محسن محمد لدور سعد

---

(١) نشرته دار أخبار اليوم فى عدد يوليو ١٩٧٢ .
(٢) نشرته دار المعارف فى عام ١٩٨٢ .
(٣) نشرته مكتبة غريب بالقاهرة فى عام ١٩٨٨ .

زغلول فى السياسة المصرية قبيل ثورة ١٩١٩ وذلك من خلال توليه وزارتى المعارف والعدل ،وعلاقته بكل من « اللورد كرومر » ، و« اللورد إدوارد جراى » وزير خارجية بريطانيا وإلى جانب ذلك فلمحسن محمد مؤلفات أخرى تعرضت لفترات هامة من تاريخ مصر المعاصر من خلال الوثائق السرية البريطانية والأمريكية نذكر منها « سرقة واحة مصرية » [١] ، و « التاريخ السرى لمصر » [٢] ، و« أفندينا يبيع مصر » [٣] ، و « خمسة أيام هزت مصر » [٤]، و « من قتل حسن البنا » [٥] ، و « عندما يموت الملك » [٦] .

ومع أن هذه الكتابات قد اعتمدت على الوثائق الأصلية فى معظمها إلا أنها تفتقد إلى روح المؤرخ وبصماته فى النقد والتحليل وعلى الرغم من كونها عاملا من عوامل النهضة الثقافية الحديثة ، وبث الوعى لدى المواطنين بتاريخهم لكن مع ذلك كله فقد اتسمت بأسلوبها الصحفى الذى طبعت به وتغلب عليها .

---

(١) نشرته أخبار اليوم ضمن سلسلة كتاب اليوم (١٩٨٠) .
(٢) نشرته دار المعارف .
(٣) نشرته مؤسسة الأهرام .
(٤) نشرته مؤسسة الأهرام .
(٥) نشرته دار الشروق فى مارس ١٩٨٧ .
(٦) نشرته دار التعاون .

٤ - الأستاذ نجيب محفوظ كأديب [١] ترك بصماته علي التاريخ المصري :

أعمال نجيب محفوظ فى مجملها تعرضت لواقع المجتمع المصرى الذى يذخر بالمتناقضات ، ومن ثم قامت بتسجيل البيئة المصرية بشقيها الاجتماعى والسياسى ، بطريقة نبعت من علاقته المتميزة بعراقة هذا المجتمع وتطوره ، وكذلك من إرتباطه العميق بالقاع أخذاً وعطاءً ، بالاضافة إلى اعتماده على الدراسات التاريخية الجادة فى رواياته .

لقد تناول نجيب محفوظ بقلمه المبدع تاريخ مصر القديم فى أول مؤلفاته حيث نشر كتابه « مصر القديمة » الذى صدر فى عام ١٩٣٢ ، وتابع ذلك فى رواياته « رادوبيس » ، و« كفاح طيبة » وغيرها ثم تطرق إلى تاريخ مصر الحديث والمعاصر خاصة فى فترة ما بين الحربين كما حدث فى « الثلاثية » و « المرايا » وغيرها لدرجة أن رواياته عن مصر وشعبها التى تعدت الخمسين تعد بانوراما متسعة الأبعاد لكل مناخات مصر السياسية والإجتماعية خلال هذه الفترة ونظراً لأن موضوع الندوة يقتصر على الربع الأخير من هذا القرن فإن روايته المرايا التى تناولت تاريخ مصر المعاصر منذ ثورة ١٩١٩ حتى هزيمة يونيو ١٩٦٧ والتى صدرت فى عام ١٩٧٢ وروايته « يوم قتل الزعيم » التى تعرضت لأحوال المجتمع المصرى قبيل إغتيال الرئيس السادات والتى صدرت فى عام ١٩٨٥ يدخلان ضمن موضوع الندوة ، ولما كانت الرواية الثانية « يوم قتل الزعيم » من الروايات المعاصرة التى إتجهت إلى التركيز فى الحجم مع التوجه إلى الرواية السياسية بشكل مباشر فإننا سنكتفى بأن نعرض لها ، لنبين مدي إستناد نجيب محفوظ على البراهين التاريخية التى تأتى فى ثنايا رواياته وتؤدى وظيفتها وتقحم نفسها على القارىء

---

(١) ولد فى حى الحسين بالقاهرة فى عام ١٩١٢ ، ودرس الفلسفة خلال دراسته الجامعية بكلية الآداب حتى تخرج منها فى عام ١٩٣٤ ثم أخذ يحتطب بنفسه ثقافته الحرة .

دون أن تمنعه من مواصلة قراءته الأدبية ، ولنوضح ما إذا كان الأدب الروائى يمكن أن يصلح كمادة يعتمد عليها فى كتابة التاريخ .

فى كتابه « يوم قتل الزعيم » حاول نجيب محفوظ أن يجمع كل أسباب التذمر والانحرافات التى سبقت إغتيال الرئيس السادات مستخدما فى ذلك الاسلوب الرمزى فلم يذكر السادات بالاسم بل إتخذ من بعض الأسماء ستاراً للتعبير عن فكرته ببراعة واضحة فعلوان ورنده كانا مخطوبين من أيام عبد الناصر الذى كان رمزا لآمال الفقراء والمحرومين الضائعة ثم جاء عصر الانفتاح فأصبح زواجهما مع جنون إرتفاع الأسعار شبه محال فعلى الرغم من اكتظاظ « البوتيكات » ومحلات الأثاث بالبضائع الفخمة ، فلم يستطيعا الزواج خاصة وأن رواد هذه الأماكن هم المهربون والطفيليون والقوادون الذين جمعوا الملايين وركبوا أفخم السيارات على حين كان الشرفاء يتكدسون فى « الباصات » ووجوههم تطل من الزجاج المشروخ مثل المساجين يوم الزيارة وعلى الرغم من صمود علوان ورنده أمام قسوة الحياة خاصة وأن الحب كان يجمع بينهما ، فقد حاول أنور علام مديرهما الكهل فى العمل والذى دب الثراء فى عروقه نتيجة لأعماله غير المشروعة حاول وتمكن من دق الأسفين بينهما حتى إنتهى الأمر بزواجه من رنده خطيبة علوان تحت تأثير مصاعب الحياة وعدم قدرة علوان على إتمام الزواج منها ، ثم محاولات هذا المدير تزويج أخته جولستان العجوز الثرية من علوان الشاب ، وما أسرع أن فشل زواج المدير من رنده خاصة وأنه أراد أن يجعل من زوجته قطاعاً عاماً فى خدمة القطاع الخاص ، وانتهاء الأمر بانتقام علوان من المدير من أجل حبيبته التاريخية التى اختطفها منه بضربه لكمة كانت القاضية .

وإلى جانب ذلك تعرض نجيب محفوظ فى روايته إلى الهوة الساحقة بين الشعارات والحقيقة ، وإلى مجلس الشعب الذى أصبح مكانا للغناء بعد أن كان مكانا للرقص ، وإلى تفسخ القيم نتيجة لغول

الانفتاح وإلى نغمة الأسى التى إنتابت الشعب المصرى خلال هذه الفترة وهكذا حاول نجيب محفوظ أن يجمع فى روايته كل أسباب التذمر التى سبقت مقتل السادات فى شكل فنى محكم ذكر فيه كل الحقائق دون جفاف وصور بإسلوبه الروائى ما حدث فى مصر خلال عصر الانفتاح بطريقة رمزية أوضحت المشاكل التى عايشها الشعب المصرى وتأثر بها حتى غيرت من نمط حياته إلى حد كبير . كما إستطاع سرد هذه الوقائع بطريقة شاملة الرؤية مزج فيها الأدب وفن الرواية بالتاريخ وأوجد نوعاً من الوحدة بينهما بإقراره للأسباب الانسانية والطبيعية للحوادث ، وإثباته أن خيال الأديب يمكن أن يقتفى أثر الحقيقة ويلتصق بها ، وأن المعرفة كل لا يتجزأ ، وأنه يمكن للأديب أن يقترب من الحوادث السياسية والتطورات العلمية بشكل لا يؤثر فى روح التأليف التاريخى وشكله ومحتوياته وان كان يمزج بين الأفكار والحوادث والمبتكرات الفنية . ومع كل ذلك فينبغى أن نتذكر دائما أن الأديب أو الروائى بصفة عامة ليس مطالبا بعمق الدرس أو بدقة التحليل العلمى بقدر ما هو مطالب بأن يكون أصيلا فى تعبيره عن العاطفة الاجتماعية ، واسعا فى مشاعره وخياله ، ومع أن العمل الروائى يعتمد على الخيال بجانب الواقع ففى رأينا أن نجيب محفوظ فى هذه الرواية جمع بين موضوعية العلم ، وذاتية الأدب . وان كانت علاقته بالتاريخ كانت علاقة الفنان وليست علاقة المؤرخ .

وفي النهاية يمكن القول إنه علي الرغم من البصمات الواضحة التي تركها بعض المؤرخين الهواة في تاريخ مصر ، وبالرغم من أن بعضهم شق طريقه داخل منعرجات التاريخ ومنحدراته بهدف الوصول إلي الحقيقة واثبات مقدرته كإنسان موهوب أوتي من العلم والثقافة حظا كبيراً فإن ذلك لا يعني أن كل من يحاول الكتابة في التاريخ يصبح مؤرخا .